ابن رضوان وكتابه في السياسة(*)

د. إحسان عباس

١ - نشأته في مالقة (٧١٨ - ٧٨٢ = ١٣١٨ - ١٣٨٠)

هو أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان النجاري الخزرجي، فهو أنصاري من حيث النسب، يؤكد هذا قول ابن الأحمر في استدعاء الاجازة منه: «إذ تَمُتُّ بالنسب كمثلي الى قيلة»[١] (والأنصار يعرفون عند النسابين ببني قيلة). وصف جده «رضوان» بأنّه كان زاهداً في شؤون السياسة، ولذا رفض تولّي الوزارة والكتابة عندما ندبه الرئيس أبو سعيد فرج بن اسماعيل ابن الأحمر لتوليها في مالقة، ورشّح لها أخاه محمداً، فاستوزره أبو سعيد، وظل رضوان قانعاً بالقضاء والخطابة، «وسلك منهج الصالحين وكان للأمراء من الناصحين»[٢]. أما أبوه يوسف فكان المتولي لرئاسةديوان الجند ولهذا جاز لقب القائد، في بلده[٣]. وقد تزوج يوسف ابنة القاضي أبي القاسم بن ربيع، ورزق منها بعبدالله الذي أصبح يكنى من بعد بأبي القاسم وأبي محمد[٤]، واشتهر باسم جده فأصبح يعرف بابن رضوان.

ولد عبدالله عام ٧١٨ هـ بمدينة مالقة[٥]، وكانت مالقة تمثّل يومئذ في الأندلس زاوية من زوايا المثلث الصغير الذي بقي في يد المسلمين، أما الزاويتان الأخريان فهما: **غرناطة** وصاحبها هو ابن الأحمر، **والجزيرة الخضراء وطريف** وهما ثغر المرابطة لدى السلطان المريني، منهما يشن الغارات على أملاك الطاغية **الفنش بن هراندة** وخلفائه. وقد كانت العلاقات بين هؤلاء الحكام الثلاثة متقلبة، بحيث تعطي صورة غريبة عن استبداد المصالح التي كانت تؤدّي الى اتحاد اثنين منهما ضد ثالث. وقد ظلت مالقة في يد **بني أشقيلولة** الذين كانوا من أقوى المنافسين لابن الأحمر، حتى تملكها السلطان المريني - أبو يوسف يعقوب بن عبد الحقّ - عام ١٢٧٧/٦٧٦، وظلت في يده الى أن نزل عنها لابن الأحمر عام ١٢٨٣/٦٨٢[٦]، فولي أمرها اسماعيل بن

(*) مستلّة من «كتاب العيد»، الصادر سنة ١٩٦٧، تحيةً للجامعة الاميركية في بيروت، في عيدها المئوي ١٨٦٦ - ١٩٦٦.

يوسف بن نصر من بني الأحمر ، ثم وليها من بعده ابنه فرج المسمى بالرئيس أبي سعيد ، وفي أيامه حدثت فتنة بينه وبين قريبه صاحب غرناطة فأعلن استقلاله بمالقة والدعاء لنفسه ، وضمن تصيير أمر غرناطة لأحد أولاده وهو اسماعيل ، (٧٢٥/١٣٢٤)[٧].

ففي امارة أبي سعيد بمالقة بلغ والد عبدالله منصب رئاسة ديوان الجند ، وفي امارة ابنه اسماعيل ولد عبدالله ، وكان الوالد رجلاً مشاركاً في العلوم ، فكان هو وخال الغلام أبو الحكم بن عبدالرحمن بن القاضي أبي القاسم ، ربيع الأشعري من أول الناس توجيهاً له في نشأته العلمية . أما أبوه فقد أجازه اجازةً عامة ، وأما خاله فقد قرأ هو عليه نحو الثلث من كتاب الشفاء للقاضي عياض[٨].

٢ ـ أساتذته وثقافته في الفترة المالقية

كانت مالقة في أيام ابن رضوان ما تزال حافلة بالعلماء من أهلها ومن الوافدين عليها ، وفيها تلقى ثقافته الأولى على شيوخ مشهورين ، بعد أبيه وخاله . والفضل في معرفتنا أكثرهم يعود الى تلميذه السراج ، فقد عدَّ له ثلاثين شيخاً ـ في الفترات جميعها ـ وختم ذلك بقوله : « وهم جمّ غفير » . كما أحصى ما أخذه عن كل شيخ من كتب ، ويؤخذ من هذه التفصيلات الوفيرة أنه درس بمالقة كتباً في القراءات ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، والحديث . وكان من أبعد الأساتذة أثراً في نفسه اثنان :

أحدهما : الفقيه العالم قاضي مالقة أحمد بن عبدالحق الجدلي[٩] (٧٦٥/١٣٦٣) الذي كان مضطلعاً بصناعة العربية ، عارفاً بالفروع والأحكام ، مشاركاً في فنون من أصول وطب وأدب ، قائماً على القراءة ، إماماً في الوثيقة ، حسن الخط ، مليح السمت عذب الفكاهة .

وثانيهما : الفقيه الامام قاضي مالقة أبو بكر محمد بن عبيدالله بن منظور[١٠] ، الذي كان صوفي النزعة .

أما الأول فقد احتذى ابن رضوان ،طريقته في احكام الوثائق وحسن الخط والتمكن من الخطابة ، وأما **الثاني** فألبسه خرقة التصوف ، ودرّسه جملة من الأناشيد الصوفية التي كان قد أخذها عن أشياخه . خاصة في نفس تلميذه ، اذ تعاون هو وأستاذ جليل آخر هو أبو عبدالله الطنجالي[١١] ،المتصوف ،على تحبيب التصوف اليه . ونجد التلميذ قد خصَّ أستاذه ابن منظور بقصيدة طويلة في المدح ، مطلعها[١٢] :

جلالُكَ أَوْلَى بالعَلاء المُخَلّدِ
وذِكْرُكَ آيُ الذِّكْرِ في كلِّ مَشْهَدِ

وفيها يُثني على علمه وقدرته في القضاء ونزاهته وعدالته ، فيقول :

وقاضٍ إذا الأحكامُ أشْكَلَ أمرُها
جلاها برأيٍ للحقيقة مُرْشِدِ

إذا الحَـقُّ أبْـدى حُكْمَـهُ عِنْـدَ حُكْمِـهِ
رَأَيْـتَ لـه حَـدَّ الحُسَامِ المُهَنَّـدِ
وإنَّ جَميـعَ الخَلْـقِ في الحَـقِّ عِنْـده
سَوَاسِيَـةٌ مـا بَيْنَ دانٍ وَسَيِّـدِ

٣ ـ أساتذته وثقافته في الفترة الغرناطية

أُقَدِّرُ أنَّ ابن رضوان التحق بغرناطة مدّةً من الزمن ليدرس على بعض شيوخها، ولكنّنا لا نستطيع أن نفصل تمام الفصل بين من لقيهم في مالقة وبين من لقيهم في غرناطة؛ اذ أنّ هؤلاء الأساتذة أنفسهم كانوا كثيري التنقل، إمّا بحكم مناصبهم أو بسبب رحلتهم في سبيل العلم. فقد درس على شيخ النحاة بالأندلس أبي علي الفخّار[١٣]، وكان ابن الفخّار قد قعد مدة للتدريس بمالقة، ولكن ابن السراج يصفه بقوله «رئيس النحاة بغرناطة»، ولذا فليس من المقطوع به يقيناً أنّ ابن رضوان لقيه في غرناطة.

ومن أهمّ أساتذته الغرناطيين العالم الحافظُ أبو القاسم بن جزّي (١٣٤٧/٧٤١)[١٤]، وقدذكرهذا الأستاذ في كتابه «الشهب اللامعة»، وسماه «الشهيد»، لأنه قُتِلَ في معركة طريف مع السلطان أبي الحسن. وتُعَدُّ المادة التي درسها عليه أغزر من أيّ مادة درسها على سائر أساتذته، فمن ذلك:

١) القرآن الكريم بحرف نافع من رواية ورش وقالون، جمعاً من طريق أبي عمرو الداني.
٢) كتاب التيسير لأبي عمرو الداني
٣) حرز الأماني لأبي القاسم الشاطبي (في القراءات)
٤) التبصرة لمكي (بعضه)
٥) الكافي لابن شريح (بعضه)
٦) الهداية لأبي العباس المهدوي (بعضه)
٧) التلخيص في القراءات الثماني لأبي معشر الطبري (بعضه)
٨) الهادي في القراءات السبع لابن سفيان (مناولة)
٩) كتاب الموطأ للإمام مالك (بعضه)
١٠) كتاب صحيح مسلم (بعضه)
١١) جامع الترمذي (بعضه)
١٢) سنن أبي داود (بعضه)
١٣) سنن النسائي (بعضه)
١٤) كتاب الشمائل للترمذي

١٥) الشفا للقاضي عياض (بعضه)
١٦) الإعلام بفضل الصلاة على النبي لأبي عبدالله النميري (بعضه)
١٧) سراج المهتدين لأبي بكر ابن العربي (بعضه وسائره مناولة)
١٨) كتاب الأربعين حديثاً لأبي القاسم القشيري (بعضه)
١٩) كتاب الأربعين لأبي العباس العزفي (بعضه)
٢٠) كتاب الدلالة في إثبات النبوة والرسالة لأبي عامر بن ربيع الأشعري (بعضه)
٢١) كتاب المنهل الروي في علم الحديث النبوي لبدر الدين بن جماعة (بعضه)
٢٢) دليلة الأسانيد لأبي عبدالله ابن الكماد (بعضه)
٢٣) كتاب التلقين للقاضي أبي محمد محمد بن عبدالوهاب (بعضه ثم جميعه مناولة)
٢٤) كتاب الفصيح لابي العباس ثعلب
٢٥) كتاب الايضاح للفارسي (جملة منه، تفقّهاً)
٢٦) كتاب الجُمَل للزجاجي (جملة منه)
٢٧) القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية لابن جزيّ
٢٨) تقريب الوصول الى علم الأصول لابن جزيّ (نحو نصفه الأول)
٢٩) النور المبين في قواعد عقائد الدين لابن جزيّ
٣٠) وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم لابن جزيّ (بعضه، ثم جميعه مناولة)
٣١) الفوائد التامة في لحن العامة لابن جزيّ (بعضه)
٣٢) أحكام الصلاة لابن جزيّ (بعضه)
٣٣) برنامج شيوخ ابن جزيّ ومروياته (بعضه، ثم جميعه مناولة)
٣٤) المختصر البارع في قراءة نافع لابن جزيّ (سماعاً)
٣٥) الأنوار السَّنِيَّة في الكلمات السَّنِيَّة (أكثره)

وكان لأبي القاسم بن جزيّ أثر آخر في نفس ابن رضوان ـ سوى الأثر العلمي ـ وذلك أنه هو الذي عرّفه الى فضائل السلطان أبي الحسن المريني وحبّبه الى قلبه، حتى لقد وقر في نفسه من بعدُ أمر الهجرة اليه واللحاق به؛ وخلاصة ذلك أنّ ابن جزّي توجّه رسولاً عن سلطان غرناطة مع بعض أفاضل الاندلسيين الى أبي الحسن، فلما قضى واجب الرسالة عاد يتحدث بمزايا هذا السلطان وفضائله، قال ابن رضوان: «فشنّف الأسماع بما عاينه بحضرة مولانا المقدّس ـ رحمه الله ـ من محاسن الدين والدنيا، وعَطَّرَ الأَنْدِيَةَ بالثناء على تلك المعاني العظيمة الفخر، الشهيرة الذكر، وكان ممّا أخبَرنا به أنّه لما وردوا على حضرته العالية أكرم نزلهم، وأكمل أملهم، وأنجح فيما قصدوه قولهم وعملهم، ثم انّهم دخلوا عليه شاكرين لاحسانه، وحامدين لحالهم عنده،

ولما فرغوا مما أراده في ذلك أشاروا الى طول مقامهم وتشوّفهم الى الوداع ، فقال لهم ـ رحمه الله ورضي عنه ـ ما معناه : انهم إنما طال مقامهم للاغتباط بهم والمبالغة في برّهم ، ثم قال : أنتم لم تطلبوا الوداع ، ونحن لا يسهل علينا فراق أمثالكم ، وأيضاً فليس من الحسن أن يُصْرَفَ الضيف حتى ينصرف على تخيّره ؛ وهذا من أحسن ما سمعته من القول في هذا المعنى ، فوالله لقد غرس به المحبة في قلوب المخاطبين والسامعين للخبر ، واستثمر به ثمرات القلوب كأحسن ما يطيب خَبَراً وخُبْراً ، رحمة الله عليه ورضوانه »[١٥] .

٤ ـ صورة هذه الثقافة

من اليسير على الدارس حين يطالع قوائم الكتب التي أخذها ابن رضوان قراءة أو سماعاً أو مناولة أو قراءةَ تفقّهٍ وتفهّمٍ أن يدرك إلحاحه على موضوعات معينة وتكريرها على أساتذة مختلفين ، دون أن يكتفي بقراءة الكتاب على أستاذ واحد ، وما ذلك الاّ لأنّ لقاء الشيوخ المشهورين يومئذ واجازتهم كانا هما مطلب الدارسين ؛ وقد خفي علينا جانب كبير مما اطلّع عليه ابن رضوان ، لأنّ أكثر أساتذته أجازه اجازة عامة . ومع ذلك ، فانّ هذا القدر التفصيلي دالّ على الميادين التي استأثرت باهتمامه ؛ اذ يتميز فيها علم القراءات والحديث والنحو والفقه تميّزاً واضحاً ، وتجيء اللغة في مقام ثانوي هي والحساب ودراسة الفرائض . ثم لاتنبئنا هذه القوائم بشيء آخر ، ونحن نتساءل حقاً : اين الاتجاه الأدبي في هذه الدراسة؟ وهل للعلوم العقلية فيها مقام؟ أما عن الأول فإن سكوت المصادر عنه ـ تفصيلاً ـ لا يعني عدم الإقبال عليه ، فنحن نعلم أن ابن رضوان لم يصبح شاعراً وناثراً الاّ بعد أن درس وحفظ كثيراً من النماذج الشعرية والنثرية ، وأمّا العلوم العقلية (سوى الحساب) فما نرى اشارة اليها ولا نستطيع استنتاج شيء بشأنها ، وأغلب الظن انها لم تستأثر باهتمام ابن رضوان .

ويحقّ لنا أن نميز إعجابه بكتاب الشفا للقاضي عياض من بين الكتب التي درسها ، لا لأنه كرّر قراءته على غير أستاذ واحد ، بل لأنّا نجد بين آثاره قصيدة يمدح فيها القاضي عياضاً ويُثني على كتابه هذا[١٦] .

ولن يقف ابن رضوان عند هذا الحدّ من الطلب ولقاء الشيوخ ، بل إنّ رحلته الى المغرب ستتيح له لقاء شيوخ آخرين ، درس عليهم أو أجازوه اجازة عامة في الأكثر .

٥ ـ انتقاله الى المغرب

كان ابن رضوان يناهز الثانية والعشرين من عمره عندما جاز السلطان المريني أبو الحسن علي بن عثمان بن يعقوب لمنازلة مدينة طريف بعد أن انتصر على أسطول الروم في بحر الزقاق (١٣٤١/٧٤١) ، ولكن انكساره على طريف[١٧] شجّع الطاغية على أن يطمع في التهام المدن الاندلسية الاسلامية ، فجمع عساكره ، « ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة وعلى مرحلة منها ، وجمع الآلات والأيدي على حصارها ، واشتد مُخَنَّقُها ، وأصابهم الجهد من العطش ، فنزلوا على حكمه سنة اثنتين وأربعين [وسبعمائة] »[١٨] . هذا ، بينا ظل السلطان أبو

الحسن مقيماً في سبتة، محاولاً أن يبعث بالأمداد للمقاومة والحيلولة دون سقوط الجزيرة الخضراء، ولكن جهوده لم تغن شيئاً.

وفي سبتة وفد الشاب عبدالله بن يوسف على السلطان أبي الحسن. ولعل الهزيمة بطريف من الأسباب التي أيأسته من البقاء في الأندلس، كما أنه كان يعلم تقريب أبي الحسن العلماء ويرجو أن ينال حظوة لديه، ويحاول أن يستكمل ثقافته على المشهورين من علماء المغرب. وكان الشاب يقدّم بين يدي غايته قصيدة نال عليها شيئاً من العطاء[١٩]. وكان من الطبيعي ان يتحدّث ابن رضوان في هذه القصيدة عن إشراق آماله بلقاء السلطان، وأنه يأمل تغيّر الحال على يديه، وكان من الطبيعي أيضاً أن يُعَرِّجَ بعد مدح السلطان وأنصاره على ذكر انتصاره في بحر الزقاق، وأن يتغافل عن ذكر الانكسار في طريف، وأن يقول مصوّراً دَهَشَ العدو وحيرتَه[٢٠]:

ومِنْ دَهَشٍ ظَنَّ السَّواحِـــــــلَ أَبْحُراً
ومِنْ رُعُـــبٍ خَـــالَ البحـــارَ سَواحِـــلا
ومِنْ جُنْـــدِكُمْ هَبَّـــتْ عليـــه عواصِـــفٌ
يُـــدَمِّرُ أَدنْـــاهـــا الصِّـــلابَ الجَنَـــادِلا

ولكن لعل ابن رضوان ما كان ليحرز لدى السلطان شيئاً من مكانة، وهو مشغول عنه بأمور الحرب شغلاً يصرفه عن النظر في أمره، لولا اتصاله برجلين من خواص السلطان، كان التقاؤه بهما سبباً في ارتباط حياته منذ عهدئذ بالدولة المرينية في المغرب. وأول الرجلين إبراهيم بن أبي يحيي - (٧٤٨/١٣٤٧)[٢١] قاضي العساكر المرينية وخطيب السلطان، وكان مقدّماً في فقهاء وقته، وله شرح على رسالة ابن أبي زيد ومقيّدات على المدوَّنة، وكان فصيح اللسان سهل الألفاظ مُوفياً حقوقها، وقد أعجب ابن أبي يحيى بفصاحة ابن رضوان وقدرته في الأحكام، فجعله ينوب عنه في القضاء والخطابة «ثم نظمه في حلبة الكُتَّاب بباب السلطان»[٢٢]. وبهذه الوظيفة الجديدة استطاع ابن رضوان أن يلتقي بالرجل الثاني الذي كان له فضل كبير في توجيهه ورعايته، وذلك هو أبو محمد عبدالمهيمن الحضرمي (٧٤٩ / ١٣٤٨)[٢٣]، رئيس كتّاب السلطان، وصاحب العلامة التي توضع عن السلطان في أسفل المراسيم والمخاطبات[٢٤]. وكان عبدالمهيمن من الناحية العلمية ذا تقدم في معرفة كتاب سيبويه، مبرّزاً في علوم الاسناد حتى وصفه ابن خلدون بأنه كان «إمام المحدثين والنحاة بالمغرب»، وكان جمّاعة للكتب، لديه خزانة تزيد على ثلاثة آلاف سفر في الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول وسائر الفنون مضبوطة كلها مقابلة[٢٥]. وكانت الدولة المرينية لأول عهدها خلواً من صناعة الترسّل، فكان عبدالمهيمن أول من ذلّل طرائق هذا الفن منذ أن تقلد الكتابة والعلامة للمرينيين. ولما بويع أبو الحسن وعرف كفايته في ذلك اتخذه رئيساً لكتّابه وصاحب علامته منذ عام ٧١٨/١٣١٨،

فاضطلع بها ، ورسخت قدمه في مجلس السلطان ، وارتفع صيته[٢٦] . ولم تكن العلاقة بين ابن رضوان وهذين الرجلين علاقة عمل وحسب ، بل وجد عندهما من العلم ما يستكمل به ثقافته . وكان هو أشدَّ ملازمةً للثاني ـ بحكم الوظيفة ـ فلم يكن يفارقه في سَفَر أو حضر[٢٧] ، فأخذ عنه مسلسلات القاضي أبي علي بن الأحوص جميعها بشروطها ، وسمع عليه ، وقرأ عليه « الأربعين التساعية » من تخريجه غير مرة ، وغير ذلك[٢٨] . كما أُقَدِّر أنّه أفاد الشيء الكثير مما حوته مكتبته الغنية ، وأنَّ ذلك أعانه الى جانب الرواية على الاطلاع الواسع .

وحقّقت الهجرة لابن رضوان لقاء علماء آخرين من أعلام المغاربة ، ومن المهاجرين الأندلسيين الذين التفوا حول السلطان أبي الحسن المريني حين سمعوا بما يلقاه العلماء في رحابه من إكرام وتقدير ، فقضى في المغرب فترة امتدت حتى عام ٧٤٨ ، وأخذ عن جماعة من أعلامه ، منهم الآبلي أبو عبدالله محمد بن إبراهيم[٢٩] (١٣٥٦/٧٥٧) الذي كان من أكثر علماء عصره تضلعاً في علم المعقول والتعاليم والحكمة ، وقد استدعاه السلطان أبو الحسن من مدينة فاس ونظمه في طبقة العلماء الذين يجالسونه ، فعكف على التدريس والتعليم ، ودرس عليه خلق كثير ، وكانت دراسة ابن رضوان عليه بمدينة تلمسان . وكذلك درس ابن رضوان على عدد من الشيوخ المغاربة لا مجال لذكرهم هنا[٣٠] .

وأتاحت له الحياة الجديدة تجارب كثيرة ـ ولا بدّ ـ منها ما يتصل بالحياة عامة ، ومنها ما يتصل بشؤون الدول والحروب والسياسة وعلاقاتها ومكايدها ، ولو كان ابن رضوان ممن يسجِّل ذكرياته لكان لنا في هذه الذكريات خصب وعمق . وقد أخذ إعجابه بأبي الحسن يزداد مع الأيام ، وكأنما رأى فيه مثالاً للسيرة السياسية السليمة ؛ فهو في نظره : « السلطان الكبير مجد المملكة ومحبوب العالم ، الطاهر الشمائل ، الكريم الشيم » ، وتصرفاته لديه تُعَدّ مقياساً لحسن التأتي ، فمن ذلك أنّ ابن رضوان حضر بين يديه بمجلسه العليّ من مَشْوَرِهِ بمنصورة تلمسان ، فاستدعى صاحب أشغاله القبائلي منادياً : « القبائلي » ، وعلى مقربة منه فتى صغير ، فأراد أن يُسْمِعَ القبائليَّ أنّ السلطان يستدعيه فقال : « القبائلي » ، فأراد السلطان ان ينبِّهَه ، ولكنه أمسك حتى اقترب القبائلي ، فقال السلطان للفتى ـ بحيث يسمع القبائلي ما يقوله : « كيف يا فاعل! نحن نقول القبائلي وتقول أنت كذلك!؟ انما يقول مثلك : سيدي عليّ القبائلي . . . وهذا من الكلام الذي لا أحسن منه »[٣١] .

٦ ـ في افريقية (تونس)

سبع سنوات تفضّت على ابن رضوان وهو يكتب للدولة تحت إشراف عبدالمهيمن الحضرمي ، ويحضر مجالس العلماء حول أبي الحسن ، ويدرس على الشيوخ ، وفي عام ٧٤٨ عزم السلطان على غزو افريقية بعد أن التأمت الجراح على طريف ، وفي هذه الحملة اصطحب معه عدداً كبيراً من العلماء المقرّبين اليه ، فيهم : الإمام الآبلي ، والسطي ، وعبدالمهيمن ، وأبو العباس الزواوي ، وابنا الامام ، وابن الصباغ ، وابن عبدالنور ، وابن النجار ، وأحمد بن شعيب ، وابن مرزوق[٣٢] . وكان ابن رضوان احد من صحبوه في هذه الرحلة . وفي

تونس لقيه ابن خلدون، وشهد له بأنه «من مفاخر المغرب في براعة خطه، وكثرة علمه، وحسن سمته، واجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسيل عن السلطان، وحوك الشعر، والخطابة على المنابر؛ لأنه كان كثيراً ما يصلي بالسلطان»[٣٣]. وصحبه ابن خلدون أثناء إقامته بتونس، ولكنّه لم يتخذه شيخاً له لتقارب السنّ، فقد كان ابن رضوان لا يتجاوز الثامنة والعشرين حينئذ.

وعلى صغر سنه فقد برز في هذه الرحلة بين الشيوخ والأقران، بعلمه وخلقه، وبمكانته في ديوان الترسّل، وكان من الذين مدحهم يومئذ شاعر تونس الشاب، أبو القاسم الرحويّ، رجاء أن يُذكِّرَ عبدالمهيمن بأن يوصل قصيدة للرحويّ نظمها في مدح السلطان أبي الحسن، ومطلع قصيدة الرحوي في مدح ابن رضوان:

عرفــتُ زمــاني حــين أنكرتُ عِرفــاني
وأيقنــــتُ أنْ لا حَــــظَّ في كَفِّ كيوَانِ

وفيها يمدح العلماء القادمين على السلطان بقوله:

هُمُ القومُ كـــلُّ القومِ أمّـــا حُلُومُهُمْ
فـــأرْسَخُ مِنْ طَوْدَيْ ثِبَـــيرٍ وثَهْـــلاَنِ

ويذكرهم باسمائهم، ويُعَرِّج على ذكر ابن رضوان بقوله:

ومـــــا عَلِقَـــــتْ مِنِّي الضمائرُ غَيْرَهُ
وإنْ هَوِيَــتْ كُلاًّ بِحُــبِّ ابنِ رَضْوانِ[٣٤]

وفي هذه الرحلة لقي ابن رضوان عالماً كبيراً من علماء تونس أضافه الى قائمة شيوخه، أعني به قاضي الجماعة بتونس أبا عبدالله محمد بن عبدالسلام الهواري (ـ ٧٤٩)[٣٥]؛ غير أنني أُقدِّر أنّ مشاغله الكثيرة قد حالت دون لقاء كثير من العلماء التونسيين، كما أنّه كان قد أصبح في موقف من يقصده الناس للدرس.

ثم انّ افريقية التي فتحت ذراعيها لتلقّي سلطانه أبي الحسن، عادت فأظهرت له الشنآن والنفور، وثار عليه العرب من سليم، وحصروه في القيروان: «وأحاطت حللهم بها سياجاً، وتعاوت ذئابهم بأطراف البقاع، وأُجلب ناعق الفتنة من كل مكان»[٣٦]. هذا، بينما ظل حرم أبي الحسن في تونس، فانحازوا الى قصبتها احتماءً، وتخلى عنهم عبدالمهيمن، واختبأ في المدينة في بيت بني خلدون، وظل ابن رضوان يقوم بواجبه تجاه أهل السلطان، ويؤدّي ما يعرض من المكاتبات، «وتولى كِبَرَ ذلك فقام فيه أحسن قيام»[٣٧]. وقد استحقّ بهذا رضى السلطان وحسن ثقته، فرعى له حق الخدمة، ونقم على عبدالمهيمن ما كان من تخاذل. وركب

السلطان الأسطول مغادراً تونس، مخلّفاً فيها ابنه أبا الفضل محمداً، لعله يستطيع أن يرأب الصدع بما كان له من عصبية المصاهرة مع بعض أهلها، وترك ابن رضوان في تونس كاتباً لابنه، ولكن مُقام أبي الفضل لم يدم الا أياماً؛ اذ غُلِبَ على تونس، واضطُرّ الى الرحيل عنها، ولم يتمكن ابن رضوان من الارتحال معه، فتلبّث في تونس حولاً، ولكن يبدو أنّ بلوغ الطاعون اليها دفعه الى مغادرتها، فاختار أهون الشرين، وركب سفينة مبحرة الى الأندلس.

ماذا يصنع؟ الاقامة في تونس أمر محفوف بالخطر، واللحاق بأبي الحسن الذي تحطم به الأسطول[٣٨] وكاد يكون في الهالكين أمر تحول دونه الحوائل؛ فانّ الشائعات قد وصلت الى المغرب بغرق السلطان، فأعلن ابنه فارس أبو عنان الاستقلال بالمغرب وأخذ البيعة لنفسه، بل إنّه حين وصل أبوه وتحقّقت نجاته، وقف أبو عنان ينكر عودته، وينازله في معركة اثر أخرى، حتى وافته المنية (١٣٥١/٧٥٢). وكان بعض الناجين من أسطوله قد لجأوا الى مدينة المرية، فلحق ابن رضوان بهم، وأقام معهم. وهنالك وجّه اليه أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن الأحمر سلطانُ الأندلس يستدعيه ليكون كاتباً عنده، فامتنع. وفي امتناعه ما يشير الى أنّ نفسه كانت قد انصرفت عن البقاء في الأندلس، وأنّ قلبه كان ما يزال معلقاً بالمغرب، وأنّ اقامته بالمرية لم تكن الا ترقّباً للأحداث وتحيّناً لفرصة العودة.

٧ ـ عودته الى المغرب ووفاته

ولما استتب الأمر لأبي عنان، وفد عليه القوم الذين لجأوا الى المرية، ووفد عليه ابن رضوان في صحبتهم، فتقبّلهم السلطان جميعاً، وجعل ابن رضوان واحداً من كتّابه، وأذِنَ له بحضور مجلسه مع طلبة العلم بحضرته[٣٩]. ومنذ التحاقه بأبي عنان ظل كاتب الدولة المرينية حتى توفي، وقد توالى الى العرش بعد السلطان أبي الحسن تسعة من السلاطين[٤٠] خدمهم ابن رضوان بالكتابة، دون أن يتأثّر بأحداث العزل والقتل التي لم تكن تسمح لبعضهم بالبقاء في عرشه سوى أشهر معدودات، فهو كاتب الدولة، ولكنّه لا يتدخّل في شيء من سياستها، وانما يعبّر بقلمه عما تريده منه السياسة المتقلبة.

ما طبيعة المنصب الذي كان يحتله ابن رضوان على وجه الدقة؟ أما أول اتصاله بالسلطان أبي عنان، فإنه كان واحداً من الكتاب في الديوان، ولكن رئيس الدولة وصاحب العلامة يومئذ ـ وهو محمد بن ابي عمرو ـ آثر ابن رضوان بالتقريب، وأخذ يحبب السلطان به، ويعتمد عليه إذا غاب، ويقدمه للمهمات من الأمور، فاطلع السلطان على ما يمتاز به ابن رضوان من فضائل، حتى إذا تغيّرت نيّة أبي عنان على رئيس دولته بعد غزوة الى بجاية عام ١٣٥٣/٧٥٤، أقصاه عن الخدمة، وولاّه مدينة بجاية، وجعل رئاسة الكتّاب والعلامة الى ابن رضوان، «فاستقر بها موفّر الاقطاع والإسهام والجاه»[٤١]. فما هذه العلامة، وما منزلة صاحبها؟ قال ابن الأحمر في تعريفها:

« هي شارة في الكتب كالشهادة الشرعية في العقود ، وفي اختلفت آراء الملوك فيها ، فبعضهم يضعها بيده في الصك بحبر ، ولم يتّخذ لها كاتباً كملوك الموحدين من بني عبدالمؤمن بن علي ، فانهم كانوا يكتبون العلامة بأيديهم . . . وبعض الملوك يقدّم لكتبها رئيس كتبته ، وربما شارك بعضهم في كتب العلامة كاتبه المقدم عليها كبني مرين ملوك المغرب ، فإذا رأيت الصك المريني وعلامة « وكتب في التاريخ المؤرخ به » فهي بخط يد السلطان ، وإذا كانت « وكتب في التاريخ » فهي بخط يد صاحب العلامة »[٤٢]. ويختلف موضع العلامة ، فأحياناً يكون بعد البسملة وأحياناً يكون في ختام الرسالة. فهي إذن توقيع متميز مؤذن « برسمية » الكتاب ، ولا بدّ أن يكون صاحبها رئيس ديوان الترسّل ، وأن يكون موضع ثقة من السلطان ، لكي يستطيع تحمّل المسؤولية نيابة عنه ، وليس من الضروري أن يكون صاحبها ذا أثر مباشر في تصريف السياسة كما كان محمد بن أبي عمرو في زمن أبي عنان ، فإنه كان رئيس الدولة وحاسب الجباية والعسكر وصاحب العلامة.

وقد ظل ابن رضوان حائزاً على ثقة السلطان أبي عنان حتى آخر سنة ٧٥٧ . وقد أطنب من ترجموا لابن رضوان في وصف طبيعة هذه الثقة حتى قال لسان الدين : « فشدّ عليه بالغبطة ، وأنشب فيه ، ورمى اليه بمقاليد الخدمة ، فسما مكانه ونما عيشه »[٤٣]. وقال ابن خلدون : « حتى علق منه بدمه ، ولايةً وصحبةً وانتظاماً ، في السمر وغشيان المجالس الخاصة »[٤٤]. وبعد ذلك العام سخط عليه ونزع العلامة من يده وولاها محمد بن أبي القاسم بن أبي مدين[٤٥]. ولا نعرف سبب هذا السخط ، ولكنّا نعلم أنه لم يكن سخطاً ينتزع ابن رضوان من ديوان الترسّل جملةً ، اذ ظل كاتباً في عهد أبي عنان ومن بعده من السلاطين الثانية ، لكنه لم ينل العلامة في زمن أبي سالم ، اذ كان صاحبها هو علي بن محمد بن مسعود ، كما كان ابن خلدون أعلى منه منصباً ، اذ كان اليه ديوان الانشاء والتوقيع والسر : وبعد موت أبي سالم (٧٦٢) عادت العلامة لابن رضوان ، وظلت في حوزته أيام أبي فارس عبدالعزيز ، وأيام ابنه السعيد ، وأيام أحمد بن سالم[٤٦].

وفي سنة ٧٨٣ سار أحمد بن سالم لحصار ثائر في مراكش ، وكان في صحبته صاحب علامته ابن رضوان ، فتوفي شيخ الكتّاب بمدينة « أزمور »[٤٧] وقيل في « آنفا »[٤٨] وقد بلغ من العمر نحو ستة وستين عاماً ، ودفن بمقبرة الحاج صالح[٤٩].

٨ ـ عناصر شخصيته

قضى ابن رضوان ما لا يقل عن أربعين عاماً وهو يخدم الدولة المرينية بقلمه ، دون أن تختلّ حظوظه اختلالاً متباعد الطرفين ، أو يتعرّض لما يتعرّض له المشتغلون بالسياسة ، أمثال صديقيه ابن الخطيب وابن خلدون من تقلب في الحال ، بين رضًى ونقمة ، وارتفاع وانخفاض . وسرُّ ذلك كامن في طبيعة شخصيته ، فقد كان على ما استقرّ في نفسه من طموح ، يعرف متى يقف بطموحه عند حدّ لا ينفذ اليه منه الأذى . وكان منذ أن التحق بالمرينيين يعلم أنّ عودته الى مالقة أصبحت مستبعدة ، وأنّ فقدانه منصبه لا يعوّضُه الاشتغالُ الحرُّ

في ميدان التدريس والعلم، وقد تعوّد منذ أن قرّبه القاضي ابن أبي يحيى ان يكون « الرجل الثاني »، فلا يخامره طمع في أن يزيل من في طريقه لاحتلال « المنصب الأول »، وكذلك ظلّ مع عبدالمهيمن، وكذلك عاش مع محمد بن أبي عمرو. وكان هؤلاء وغيرهم يرضيهم فيه كفايته التي تجاوز طموحه، وإخلاصه لولي نعمته، وجلده على العمل، ونهوضه بما يطلب منه، وحصافته في شؤون الدول، وتفانيه في الخدمة، وانكاره ذاته على نحو من التواضع ظل يلازمه حتى حين احتل أعلى المناصب، فقد عُرِفَ عنه أنّه كان كثير الذم لنفسه[٥٠]، وكانت هذه الطريقة دربة نفسية اتخذَها وسيلة لقدع الرغبات الطامحة، وكان محببّاً الى من حوله، فقد نشأ الرجل على أتمّ العفاف والصون[٥١]، وانتفع في نشأته الأولى بيئة البيت الصالحة، والجوّ المشبع بالفضل والديانة والجاه[٥٢]، وعرف منذ صغره كيف يضع ذوو الجاه نفوذهم في نفع الآخرين، وخبر بنفسه حين كان محتاجاً الى العمل معنى التحرّم بذوي النفوذ، فلم ينس حين أصبح كذلك أن يُعين الآخرين بجاهه، ولذا كان يبذل جهده في قضاء حوائج معارفه ومن يلجأ اليه من غير معارفه[٥٣]. وفي هذه الناحية من خُلقه يقول ابن الأحمر: « وكان في الحضرة واسطة خير، ودافع غمّ وضير، يُذهب الضرر باحسانه، ويحسن القول بلسانه »[٥٤]. وكان مما يزيد روابط الألفة بينه وبين من يعاشرهم على الصعيدين الرسمي والإخواني، حلاوة في الفكاهة لديه وحرارة في النادرة[٥٥]. وهكذا جمع خلالاً تقدمه في مستويات مختلفة. وكان لبعض أساتذته أثر عميق في توجيه نفسه، فهم انما عظموا في نفسه لدينهم وصلاحهم وشيء من نزعة صوفية في نظرتهم الى الحياة، ولم يعظموا لديه بعلمهم وحده، ولذا كان منطوي النفس على خشوع وتديّن حقيقي، وقد عرف بحبه لأهل الدين والتعظيم لهم، وخاصّة لمن ينتسب للصوفية[٥٦]، وكان خشوعه يقترن بإسراع الدمعة الى الانسكاب، فيزداد تؤكّداً عند من يعاشرونه. وقد لفت انتباه معاصريه فيه عدم تفريطه في شيء من شؤون الهيئة الحسنة والسمت الحسن. فاذا جمعتَ الى ذلك كله ذلاقة لسان بارع في الخطابة كبراعة القلم في الكتابة، وجدتَ تحقيق قول تلميذه أبي زكريا السرّاج فيه: «لم أر في طريقه مثله »[٥٧].

وقد عرفه ابن الخطيب يوم كان ابن رضوان ما يزال طالباً في الأندلس وعرَّف به في « التاج »، فأعجبه فيه قدرته الأدبية في الشعر والانشاء، ونشأته على العفاف والصون « فما مال الى فساد بعد الكون » كما نوّه ببراعته في الخطّ وفهمه الذي يحل الغوامض[٥٨]، ثم ترجم له، وابن رضوان يحتل منصب صاحب العلامة في الدولة المرينية، فذهب في الثناء عليه مذهباً عريضاً حين قال: « سلم اجماع القول بفضله من الخلاف »[٥٩]. ولكنّا نلحظ من سطور ابن الخطيب أنه يغبطه على ما ناله من منصبه، ويراه ممن كتبت له السعادة: « ألقت السعادة عصاها واستقرت، وارتفع النزاع لما اعترفتْ بوجوب حقّه الأيام وأقرّتْ، فهو اليوم من المجلس صدرُه ومن الأفق بدرُه، ومن الأمر لسانه، ومن الدهر احسانه، عَلَمٌ لا يخفى في الأرض ولا يلتبس، ومشكاة فيها مصباح، والخلق يقتبس »[٦٠]. كذلك فانه أشاد بروعة خطه وحسن نظمه، وختم هذا بقول يشبه ما قاله تلميذه ابن السراج: « ما نعرف نظيراً لفرده ولا نرجساً مقارباً لورده »[٦١].

فهو ـ إذن ـ الى جانب هذه الخلال المحبَّبة فيه قائم خير قيام بمتطلبات المنصب الذي يشغله ، إذ هو ذو خطٍّ حسن ، ومعرفة متنوِّعة ، له مشاركة في العلوم ، وله معرفة بطارفها والتليد ـ كما يقول ابن الأحمر ـ[٦٢] ومهارة في كتابة الوثائق ، وبلاغة في الأسلوب ، وإجادة في النظم ، وقدرة على الخطابة ، وحظ غير قليل في الرواية .

ونقف من أخبار ابن رضوان عند حدّ هذه الأوصاف العامة المجملة في وصف شخصيته ؛ اذ ليست لدينا أخبار تفصيلية نستطيع أن نستنتج منها ما يسعف على رسم صورة له واضحة الجوانب والسمات . حتى علاقاته بمن حوله من العلماء والموظفين ورأيه فيهم مجهولة لدينا ، لأنَّا لا نسمع ابن رضوان يتحدّث عنهم . واذا كان هذا الجانب نفسه طامس المعالم ، كيف نرجو أن نعرف شيئاً من أخباره اليومية خارج نطاق العمل الرسمي ؟

وهكذا يسحب الغموض ذيله على كثير مما يتصل بابن رضوان ، حتى انّا لا نعرف من تلامذته الآخذين عنه ـ عدا ابن خلدون الذي لم يعدّه شيخاً ـ سوى اثنين ، هما : السراج الذي ترجم له في فهرسته وأبو الوليد ابن الأحمر الذي استجازه كتبه ومروياته .

ولكنّ جانباً من شعر ابن رضوان يدلّ على أنه كان يعاني ما يعانيه المرء الذكي الساخر الفكه من محاولة للتوفيق بين قدرته اللمّاحة على مفارقات الحياة وأهلها ، وبين ميله الى التحبّب والمياسرة والمجاملة الاجتماعية ، ولذلك كان جانب من شعره متنفَّساً لتهكّم لاذع ، وروح فكاهية ساخرة ، لا تستطيع ان تجد تعبيراً عن نفسها الاّ في الشعر أو في المجالس الخاصة .

٩ ـ كتاب الشهب اللامعة في السياسة النافعة ـ دراسة ومقارنة

قال أحمد بابا التنبكتي في ترجمة ابن رضوان : « وله تأليف حسن في السياسة السلطانية »[٦٣] ولكنه لم يذكر اسمه . كذلك لم يشر اليه أحد من معاصري ابن رضوان الذين ترجموا له كابن الخطيب وابن خلدون والسراج وابن الأحمر ، ولكن المؤلفين الأخيرين ذكراً أنّ له فهرسة روياها عنه[٦٤] . ولا نعرف لابن رضوان شيئاً سوى هذين المؤلفين كما لم تحدثنا كتب التراجم إن كان قد جمع شعره ونثره في نطاق .

ويبدو أن لا داعي للشك في أنَّ التأليف في السياسة السلطانية الذي ذكره التنبكتي هو « الشعب اللامعة في السياسة النافعة » ، فهذا هو الاسم الثابت على جميع ما وصلنا من مخطوطات هذا الكتاب[٦٥] ، مثلما أنّه ثابت في مقدمة المؤلف .

وقد قام ابن رضوان بتأليف « الشهب اللامعة » بناء على طلب من السلطان ابراهيم ابن أبي الحسن المريني المكنّى بأبي سالم (وهذا السلطان بويع يوم الجمعة منتصف شعبان عام ١٣٥٩/٦٧٠ ، وقتل يوم الخميس ٢١ ذي القعدة ١٣٦٢/٧٦٢ ، وعمره ثمانية وعشرون عاما)[٦٦] . والدليل على ذلك قول المؤلف في مقدمته « أما بعد ، فانّ مقام الخلافة العلية . . . والامامة الابراهيمية » ، فقوله « الامامة الابراهيمية » يشير الى السلطان

ابراهيم[٦٧]. أما أنّ تأليف الكتاب كان استجابة لطلب السلطان، فذلك ما يؤكده قول المؤلف في المقدمة: «وانّ ما اقتضته ارادته الصادرة عن علو الهمم، والمقاصد الزاكية الشيم، أمره بتأليف مجموع في السياسة الملوكية والسير السلطانية، يقع به الامتاع ويظهر الانتفاع، قصداً منه ـ أعلى الله أمره ـ لتخليد أثر يُتّبع دليله، وعلم يتضح سبيله، ولما اختصّني بذلك وخصنّي عليه، وضرب عزمه الكريم اليه، بادرت أمره بواجب الامتثال، وأخذت في القصد المذكور بما رسم من الاستعجال»[٦٨].

وتفصح هذه الكلمة المقتبسة عن عدة أمور، منها: أن يكون التأليف مجموعاً؛ وأنّ الغاية منه استجلاب المتعة والمنفعة معاً، فهو شيء بين أماثيل العبرة والقواعد السياسية؛ وأنّ الاستعجال كان مُعْجلاً عن التأليف الذاتي الى ترتيب المادة المطلوبة من مصادرها.

فاذا كان الكتاب قد أُلّف للسلطان ابراهيم، فتاريخ جمعه لا يتعدّى الفترة الواقعة بين ١٥ شعبان ٧٦٠ و٢١ ذي القعدة ٧٦٢. وقد ذكرت من قبل أنّ ابن رضوان لم يكن صاحب العلامة في أيام هذا السلطان، وانما كان صاحبها هو علي بن محمد بن مسعود، ومعنى هذا أنّه كان قد تخلّى عن بعض المسؤوليات المتعلقة برئاسة الديوان، وتمكّن من الانصراف للجمع والتأليف. وقد يفيدنا أن نذكر أن صديقه ابن خلدون كان في ذلك الحين على مقربة منه اذ كان يتولى ديوان الانشاء والتوقيع للسلطان أبي سالم[٦٩].

فلما بادر ابن رضوان الى تلبية أمر السلطان جمع في كتابه نماذج من:

١) سياسة الملوك الأقدمين
٢) سير الخلفاء الماضين
٣) كلمات الحكماء الأولين
٤) طُرَفٍ من التاريخ

«ليكون في ذلك عونٌ على تعلق الأحكام السياسية بالخواطر»[٧٠] وجعله في خمسة وعشرين باباً. ولدى قراءة هذه الفصول يتضح أن «الجمع» كان هو الأغلب على «الشهب اللامعة» فكأنَّ ابن رضوان حين كُلِّف بتأليف هذا الكتاب، عاد الى مكتبته واختار منها المصادر التي رآها تعينه على تحقيق غايته، ثم أفرغ ما فيها في جذاذات، ثم رسم لنفسه عدد الفصول وموضوعاتها، وقسم جذاذتها بحسبها، وأدرج كل فئة منها تحت الفصل الملائم. ولم يتدخل في ما وراء ترتيب الفصول الا قليلاً.

وكانت مصادره أنواعاً منها:

١) **كتب في التاريخ**: وهنا قد يسمي المصدر وقد يكتفي بقوله: «المؤرخون»، وقد يغفل المصدر إغفالاً تامّاً، فمن مصادره التي سماها: تاريخ محمد بن عبدالملك الهمذاني (٥٢١)، وتاريخ أبي الحسن هلال بن محسن الصابىء (٤٤٨)، وتاريخ هارون بن العباس المأموني (٥٧٢)، وكلها كتب لم تصلنا؛ وهناك نقول عن

المسعودي ، وعن ابن القوطية ، دون تعيين للمصدر .

٢) **كتب في الأخلاق** ، ومنها : الذخائر والأعلاق في آداب النفوس ومكارم الأخلاق لأبي عبدالله بن عبدالله الباهلي الإشبيلي (٥٤٤) ، وسمير الأريب لعبدالعليم بن عبدالملك الطرطوشي ، وسلوان المطاع لابن ظفر الصقلي ، وهو يسميه « السلوانات » ؛ الى أقوال كثيرة منثورة لا يمكن تعيين مصدر أصيل لها ، بل ربما وجدها ابن رضوان في كثير من مصادره العامة والسياسية ، مثل أقوال ابن المقفع ، والصاحب ، وابن المعتز ، والخوارزمي ، والعتبي ، وغيرهم .

٣) **مصادر عامة ذات اهتمام بالأخلاق والسياسة** ، مثل : عيون الأخبار لابن قتيبة ، والعقد لابن عبد ربه ، والمبهج لأبي منصور الثعالبي ، والتمثيل والمحاضرة له أيضاً ، والطب الروحاني للرازي ، وزهر الآداب للحصري ، وبهجة المجالس لأبي عمر بن عبدالبر .

٤) **كتب الطرائف والأقوال البليغة** ، مثل : الهفوات النادرة لهلال بن المحسن الصابىء ، والمقتطف من أزاهر الطرف لابن سعيد المغربي .

٥) **كتب السياسة** ، مثل : كتاب السياسة لابن حزم الأندلسي ، ورسائل ارسطاطاليس (المنحولة) الى الاسكندر في السياسة عامة وفي سياسة الجند خاصة ، وسراج الملوك للطرطوشي ، والتاج في أخلاق الملوك للجاحظ ، ومحاسن البلاغة للتدميري ، والأحكام السطانية للماوردي ، وكتاب للمرادي في السياسة .

٦) **مصادر ثانوية** ، كجذوة المقتبس للحميدي ، والمقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى للغزالي ، والشهاب في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبوية للقضاعي ، ونقول عن ابن الجوزي ، وابن عساكر ، ومن أرجوزة ابن الهبارية .

ومتى تأملنا هذه المصادر حكمنا بأنّ أول قيمة « للشهب اللامعة » انما تكمن في أنّه احتفظ بنقول وافرة من كتب بعضها وصلنا وبعضها لم يصلنا ، كسياسة ابن حزم والمرادي ، ومحاسن البلاغة للتدميري ، وتاريخ الهمداني والصابي والمأموني وغيرها . بل انه يمثّل في كثير من نصوصه « نسخة » أخرى تصحّح كثيراً من النصوص التي وصلتنا ، وقد قارنت بين ما نقله من التاج وبين نص التاج المنشور ـ على سبيل المثال ـ فوجدت فروقاً جوهرية في مواضع متعددة .

يعمد ابن رضوان أحياناً الى إغفال اسم المصدر الذي ينقل عنه ، وهذه الطريقة محيّرة ، في بعض المواقف ؛ اذ قد تجعلنا نظن ـ عند إغفال اسم المصدر ـ أنّ هذا الرأي أو ذاك من اجتهاد المؤلف نفسه . ومن أبرز الأمثلة على ذلك حديثه عن الشروط التي يجب أن تتوفر في الوزير ، فقد أوردها على النحو التالي :

« ١) ومن شروطه ان يكون مكين الرحمة للخلق ليأسو برحمته ما يجرحه السلطان بغلظته ؛

٢) ومن شروطه أن يكون نقي الجيب ناصح الغيب مؤدياً للنصيحة ؛ فقال صاحب السراج :

٣) ومن شروطه [أن يكون] معتدلاً كليل تهامة، لا حَرّ ولا قَرّ؛ ٤) ومن شروطه أن يكون ذاكراً لما يؤدّيه الى الخليفة وعنه لأنه شاهد له وعليه؛ ٥) ومن شروطه الذكاء والفطنة حتى لا تُدَلَّس عليه الأمور فتشتبه، ولا تُمَوَّه فتلتبس، فلا يصحّ مع اشتباهها عزم، ولا يتمّ مع التباسها حزم؛ ٦) ومن شروطه النزاهة وهي من الدهاء؛ ٧) ومنها الحنكة والتجربة التي تؤديه الى صحة الرأي وصواب التدبير، فانّ في التجارب خبرة بمواقع الأمور، ومنها... الخ». ثم عدّ خمسة عشر شرطاً آخر[٧١].

فقوله في سياق النص: «قال صاحب السراج» يوهم أنّ ما قبل هذا ليس للطرطوشي، وأنّ ما بعده قد يكون كلّه له، وعند المراجعة وجدت أنّ الشرطين (١ و٢) هما لصاحب سراج الملوك أيضاً، وأنّ سائر الشروط بعد الثالث لم ترد في هذا الكتاب، وأنَّ الشرطين (٤ و٥) يقابلان نصاً الشرطين الخامس والسادس (بين سبعة شروط) عند الماوردي في الأحكام السلطانية[٧٢]، وانّ ابن رضوان لا يلتقي مع الماوردي في سائر الشروط، فهل ما أضافه المؤلف بعد ذلك كله من وضعه، أو هو جمع من مصادر مختلفة، أو هو في جميع ما ينقله يعتمد مصدراً واحداً نجهله؟

ولكن تبقى بعد ذلك آراء أُرَجِّحُ أنّها للمؤلف منها:

١) استنتاجات له في كيفية التجمّل للوفود وتلقّيهم (ص: ٥٢).

٢) آراء له في طبيعة من يستشار في الأمور (ص: ٧١).

٣) رأيه في أنّ أفضل انواع الزيارة التي يقوم بها الملك لخواصه هي الزيارة لاحتساب الأجر (ص: ٤٨).

٤) مناقشته لرواية وردت في التاج: فقد ذكر رواية تقول: انّ درة بيعت بمائة ألف درهم؛ فعلق على ذلك بقوله: «ولم يؤثر عن أحد من نقلة الأخبار ولا أرباب التواليف في الأحجار النفيسة - فيما علمت - أنَّ درة بيعت بمائة ألف...»[٧٣].

٥) تقسيمه الناس الى ٣ طبقات (١٧٣).

٦) الشروط التي يراها هو لازمة في صاحب الحسبة (١٧٨).

وعلى الرغم من هذه الآراء الذاتية في أمور جزئية، فان كتاب الشهب اللامعة لا يمثّل نظرة أو فلسفة خاصة لصاحبه في الموضوع، وإنما يمثّل المادة المأثورة التي تصلح أن تكون معتمداً سياسياً أو عملاً تثقيفياً لمطالعها في الميدان السياسي؛ فهو يجمع مختارات مما توصّل اليه الفكر السياسي من أحكام ونظرات، في المشرق والمغرب، أصيلاً كان ذلك الفكر أم مترجماً، مبنياً على دلالة الأحداث والتجارب أم مؤسساً على أصول نظرية. فهو خلاصة حسنة التبويب واضحة الغاية، ولعل أبرز ما فيها اعتماد القاعدة الاخلاقية في

توجيه السياسة ، وهي شيء لم يستقل به ابن رضوان ، وانما هو ميراث أصيل في الفكر السياسي الاسلامي ، ومن أجل ذلك أُعجب هذا الفكر بكل ما وجده أخلاقي النزعة في سياسة الفرس واليونان ، وتشرَّبَه منذ البداية .

ومن أجل هذا نفسه كانت لكتاب « سراج الملوك » للطرطوشي مكانة خاصة في نفوس المفكرين الذين تناولوا التأليف في السياسة من بعده ؛ لأنه مؤسَّسٌ على نظرة أخلاقية دينية ، موشَّحة بالتمثيلات والصور والحكايات وبعض التجارب الذاتية ، وفيه اندفاع الرجل المؤمن برسالته . ولذا كان بالغ السيطرة في توجيه ابن رضوان لدى تأليف كتابه ، الا أنّ كتاب ابن رضوان أحسن تقسيماً وأقل تشتّتاً في التبويب من كتاب أبي بكر الطرطوشي ، كما أنه أحفل بما ورد فيه من قواعد عملية ، ومن آداب الآيين ، ولهذا نجد ابن رضوان انفرد بذكر أمور لم يتعرض لها أبو بكر ، كالفصل الذي عقده في الكتابة والكتاب ، والفصل الذي تحدّث فيه عن السجون وأحوالها[٧٤] . ويكفي أن نقارن بين باب « تولية الخطط الدينية والعملية وما يلحق بذلك » في « الشهب » وبين ما يقابله في « سراج الملوك »[٧٥] حتى نقف على مدى تحكم النظرة العملية السياسية في تفكير ابن رضوان ؛ ففي هذا الفصل اعتمد ابن رضوان آراء ابن حزم والماوردي وأرسطاطايس ، ولم يورد من الأقوال التي جاء بها الطرطوشي الاّ قليلاً ، وتحدّث عن أنواع العمال : كصاحب الصلاة والقضاء ، وصاحب المظالم ، ووالي الحسبة ، وصاحب البريد ، وعامل الزكاة ، والوالي ؛ وعدَّ صنوف الولايات بعد الخلافة ، وختم الفصل بالحديث عن الرسول والسفير ؛ فدل بذلك على أنه يؤسس توجيهاً واقعياً للادارة والنظم ، وأنّه لا يعظ وعظاً عامّاً كما يفعل الطرطوشي . وغني عن القول انه وجد لديه مصادر وفيرة ومادة غزيرة يقتبسها ، ويؤلف بين أجزائها ، وأنّ غايته تختلف عن غاية « صاحب السراج » . ولكن للطرطوشي عليه فضلاً آخر ، فهو معتمده في أكثر عنوانات الأبواب .

غير أن ابن رضوان لا ينفرد وحده بما تركه كتاب الطرطوشي من أثر في تصوره ومفهوماته السياسية ، بل يشاركه في هذا كثيرون ممن كتبوا في هذا الموضوع ، وستتضح هذه المسألة عند الحديث على مقام الشهب اللامعة بين المؤلفات السياسية المعاصرة .

ومن مميزات الشهب اللامعة حضور الصورة المغربية فيه الى جانب الصورة المشرقية ، هذه ناحية لا تقرّرها طبيعة مصادره وحدها ، ولا تؤكّدها فحسب سيطرة « سراج الملوك » الذي يُمَثِّل أثراً مغربياً أُلِّف في المشرق ، بل تزيدها وضوحاً الأحداث المتصلة بتاريخ المغرب وشخصياته ، وهذا شيء غير محمول على العصبية ؛ فابن رضوان انما يحتكم الى ما يُسعف المبنى العام في كتابه ، ولذا فان أمثلته تُنتزع من كل مجال ، بل اننا لنرى استكثاره من أمثلة مشرقية غزيرة لعلها أوفر من الأمثلة المغربية مجتمعة .

وقد يلفت انتباه القارىء فيه اهتمامٌ خاص بأخبار المشرق البعيد عامة ، وبأخبار تتصل بالهند خاصة . وحين تتأمل هذه المسألة نجد فرقاً أصيلاً واضحاً بين موقفي ابن رضوان وابن خلدون ، فكثيراً ما أوضح هذا

الثاني أنه سيتقصر في مقدمته على ذكر أحوال المغرب، وأنّ تاريخه سيتناول أحداث المغرب وحده، لأنه يجهل الشيء الكثير عن أخبار المشرق وأحواله، ولم يعدل عن هذا المنهج الا حين سافر الى مصر[٧٦]. أما مصادر ابن رضوان فإنها تسعفه بالشيء الكثير عن تاريخ السلاجقة وغيرهم. كذلك، فإنّ اهتمامه بالهند ليس من قبيل صلاحية المادة للاستشهاد وحسب، بل إن الالتفات نحوها إنّما كان مردّه فيما أرى الى «أنّه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلّب في بلاد العراق واليمن والهند، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند، وهو السلطان ملكشاه... وكان يُحَدِّث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض، وأكثر ما كان يُحَدِّث عن صاحب دولة الهند...». ولا نشكّ في أنّ ابن رضوان قد استمع الى جانب من أحاديث ابن بطوطة أولاً، ثم قرأ تلك الأخبار التي قيَّدها صديقه ابن جزي وسميت رحلة ابن بطوطة من بعد، فحديثه عن البريد ببلاد الهند (ص ١٨٠)، وعن اكرام سلطانها ملكشاه للغرباء (ص ١٧٠)، وعن معاملة التجار في الصين (ص ١٧١)، كان ذلك منقول عن رحلة ابن بطوطة[٧٧]. وفي هذا ما يصوِّر فرقاً آخر بين ابن رضوان وصاحبه ابن خلدون؛ فالأول اخذ هذه الأخبار وقال في بعضها «أخبر بها الثقات»، أما ابن خلدون فان نفسه لم تطمئن كثيراً الى أخبار ابن بطوطة[٧٨].

١٠ ـ الشهب بين المؤلفات السياسية المعاصرة

كتب ابن رضوان كتابه وهو ممتلىء النفس بقضية المرينيين. وقد نظنّ لأول وهلة، أنّه انما فعل ذلك تقرّباً للسلطان المريني الذي ألّف الكتاب من أجله، وما أنكر ان يكون تقرّبه للسلطان أبي سالم ذا أثر في جانب من هذا الشعور، ولكنّ ايمان ابن رضوان بالدولة المرينية ـ فيما أرى ـ يتجاوز هذا الدافع العابر الى تاريخ طويل بدأ منذ أن كان الشاب عبدالله يستمع الى الأخبار التي تفد الى الأندلس حول السلطان أبي الحسن، وامتدّ خلال أيام الخدمة في ظله ـ فهو قد ألف كتابه بعد أن قضى عشرين عاماً في خدمة المرينيين ـ ولذلك انتهز الفرصة في هذا المؤلف ـ حيثما سنحت ـ ليعبّر عن اعجابه بأبي الحسن «الامام المقدّس، مجد الخلافة وشرف الملك»[٧٩]. وهذا الاعجاب يشمل أيضاً والد أبي الحسن، اذ يقول في بعض تعليقاته بعد أن أورد قصته عن الابن

«وكيف لا يكون كذلك ـ رحمه الله تعالى ـ وهو نجل مولانا الذي طابت شمائله، وكرمت في التعطف والحنان أفاعله، السلطان الفاضل الجم الفواضل، أبي سعيد قدّس الله ثراه، وجدّد عليه رحماه ـ وله في لين الكلمة وعلو السلطان والخلق الحسن القدم العالية والحسنات الباقية» ثم أورد عنه قصة شفعها بقوله: «وهذه نقطة من بحر تلك المفاخر، واشارة تُنبىء عن ما وراءها من شيم المجد الباهر، وخلال الشرف العالي الطاهر، رحم الله منهم من سلف، وأيدّ بنصره من خلف، بمنّه وطوله»[٨٠].

فهذا الولاء للمرينيين لا يمثّل العاطفة المؤسسة على المصلحة بمقدار ما يمثّل نظرة الرجل المثقّف والسياسي النافذ النظر في ذلك العصر، وشاهدي على ذلك أنّ الاعجاب بالدولة المرينية والتوجّه نحوها بالآمال، لا يمثّل ابن رضوان وحده، بل نجده عند المفكرين المعاصرين من أمثال ابن خلدون وابن الخطيب وغيرهما، وهو أيضاً يمثّل موقف رجل الدين المثالي الذي يرى في بيعة المرينيين حقّاً مفروضاً، لاعتقاده أنهم وحدهم القادرون على انقاذ المغرب مما يتخبّط فيه من فرقة سياسية، وعلى انقاذ الأندلس من الضعف المتزايد المنذر بالنهاية المحتومة. ذلك هو موقف الرجل الكبير القاضي ابن عبدالسلام، قاضي تونس، بعد اخفاق أبي الحسن في حملته على افريقية، وانحصاره في القيروان، وتغلّب ابن تافركين عليها، وندب الخطيب بالجامع الى الدعاء لابن أبي دبوس من أمراء الموحدين؛ فما كان من ابن عبدالسلام الاّ أن قال: «والسلطان المريني!؟»، فقيل له: انه في حكم الحصار داخل القيروان، بحيث لا يستطيع الدفاع عن نفسه، قال: «فتلزم إذاً مناصرته، والعمل على الوفاء بما شُرِطَ له عند مبايعته». بل انّ ابن عبدالسلام عندما تأكّد إخفاق أبي الحسن قطع في الأمر بقوله: «لم يثبت لدينا ما يوجب العدول عن طاعة السلطان أبي الحسن»، معرّضاً نفسه بذلك لما قد يترتّب على تصلبه في الدفاع عن الحقّ المريني من خطر[٨١].

ولقد ندرك النسبة الموضوعية في موقف ابن رضوان من المرينيين حين نسمع ابن الخطيب ـ وهو يكتب لغيرهم ويسوس الأمر لصاحب الأندلس ـ يقول في أبي سعيد: «السلطان الشهير، جواد الملوك الرحب الجناب للآمل، خدن العافية، ومحالف الترفيه، ومبحبح النعيم، السعيد على عامته وخاصته، أبو سعيد عثمان بن السلطان الكبير المجاهد الصالح...»[٨٢]، ويقول في أبي الحسن: «ولده السلطان المقتفي سننه في المجد والفضل وضخامة السلطان، مُبِرّاً عليه بالبأس المرهوب والعزم الغالب والحد الذي لا يشوبه هزل والاجتهاد الذي لا تتخلله راحة، أبو الحسن...»[٨٣]. ثم انّ نزوع ابن الخطيب للالتحاق بالمرينيين بعد الخدمة الطويلة والجاه العريض بالأندلس أمر متعارف مشهور، ولكن يجدر بنا ان نقف عند كلمته التي خاطب بها تربة السلطان أبي الحسن، وفيها يقول: «السلام عليك يا حجّة الصبر والتسليم، وملتقى أمر الله تعالى بالخلق المرضي والقلب السليم، ومفوّض الأمر في الشدائد الى السميع العليم، ومعمل البنان الطاهر في اكتتاب الذكر الحكيم، كرّم الله تعالى تربتك وقدّسها، وطيّب روحك الزكية وآنسها، فلقد كانت للدهر جمالاً، وللاسلام ثمالاً، وللمستجير مجيراً، وللمظلوم وليّاً ونصيراً...»[٨٤].

وقريب من هذا حال ابن خلدون الذي لم يكد يرى مقام العلماء لدى أبي الحسن المريني حتى مال به الرأي الى اللحاق بالمرينيين، واذا تحدّث عن هذا السلطان في منازلته جبل الفتح قال: «وكان فتحاً طوّق دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر الى آخر الأيام»[٨٥]، واذا ذكر إهداء السلطان نسخ المصحف بخطه الى الحرمين والقدس قال: «وكان للسلطان أبي الحسن مذهب في ولاية ملوك المشرق والكلف بالمعاهد الشريفة، ثقيّله من سلفه، وضاعفه لديه متن ديانته»[٨٦]. ثم يقول في مهاداته لسلطان مالي: «كان للسلطان

أبي الحسن مذهب في الفخر يتطاول به الى مناغاة الملوك الأعاظم واقتفاء سننهم في مهاداة الأقتال والأمصار وايفاد الرسل على ملوك النواحي القاصية والتخوم البعيدة »[٨٧]. وقد أخفى ابن خلدون حقيقة التحاقه ببني مرين حين عبّر عنه بقوله: « فلما رجع بنو مرين الى مراكزهم بالمغرب وانحسر تيارهم عن أفريقية - وأكثر من كان معهم من الفضلاء صحابة وأشياخ - فاعتزمت على اللحاق بهم، وصدّني عن ذلك أخي وكبيري رحمه الله، فلما دعيت الى هذه الوظيفة [الكتابة عن أبي عنان] سارعت الى الاجابة لتحصيل غرضي من اللحاق بالمغرب »[٨٨]. والحقيقة التي أراها مطوية في ثنايا هذا الكلام هي استشراف ابن خلدون - بجانب المجد الذاتي - الى اللحاق بدولة تنعقد حولها الآمال في ضمّ الفرقة وجمع الشتات، ولكن ابن خلدون بعد أن طالع الأحوال في المغرب ثم في الاندلس عن كثب، يئس من أن يرى تحقّق هذه الغاية، واكتفى بمشايعة سلطان مريني بعد آخر، حتى أفضى به اليأس الى العودة، ثم العزلة، لكتابة استطلاعاته في صورة دراسة مفلسفة لطبائع العمران والسياسة وحياة الدول. كان المغرب صفحة واضحة لديه، فأراد أن يستنتج من أحداثه على مرّ الزمن - بنظرة الفاحص المتأمّل - ما يكون أنموذجاً في الفهم العميق لطبيعة العمران البشري. وكان يأسه من الدولة المرينية من ناحية، وعدوان العرب على الحضارة الافريقية من ناحية اخرى، هما المحرّك الكبير للمفهومات الكبيرة التي دوّنها في مقدمته. وعندي، أنّ بداية السؤال كانت: لِمَ أخفق أبو الحسن المريني في تكوين دولة كبرى - في أن يكون « المنقذ » للمغرب الكبير والأندلس، حيث نجح يوسف بن تاشفين وحيث نجح عبد المؤمن بن علي ذات يوم، وكان الفهم للعصبية وطبيعة العصبيات هو الجواب عن هذا السؤال الذي لم يفصح عنه ابن خلدون على هذا النحو التقريري الواضح.

وليس موقف أبي حمو ابن زيان شبيهاً بموقف الثلاثة من معاصريه، ولكنه يزيد من قوة الصورة بالمفارقة، فهو واحد من السلاطين الذين أُتيح لهم تكوين دولة مستقلة في تلمسان بسبب الضعف المريني نفسه، وهو يحس بنشوة عجيبة لما استطاع أن يحقّقه في ذلك الجوّ العجيب من الفرقة والشتات السياسي: « فكان ابتداء حركتنا السعيدة من تونس بالجدّ والاعتزام عاملين على مدينة تلمسان حضرة أسلافنا الكرام، فارتحلنا من البلاد الافريقية الى البلاد الجريدية، وكان عدونا السلطان أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن بن عبدالحق المريني بالبلاد القسنطينية، فبادرنا من حيننا اليه، برسم أن نشنَّ الغارة عليه... فاستقللنا بحضرتنا العلية، والبلاد كلها مرينية، واستولينا على ما كان بتلمسان، واستقر لنا بها الملك والسلطان، ومرين محدقة بنا من كل جهة ومكان »[٨٩]. ومن المفيد أن يقرأ الدارس كتاب أبي حمو، وأن يتأمل كتاب مؤرخه يحيى ابن خلدون « بغية الروّاد »[٩٠]، فانّه واجد في ذلك تياراً آخر من تسويغ تلك الكيانات الصغيرة التي كان وجودها نتيجة محتومة لإخفاق أبي الحسن المريني، بل انّ هذا الاخفاق نفسه كان موضع العبرة لدى رجل مثل أبي حمو نفسه، فهو يقول في تصوير الأثر الناجم عن تضعضع قلب الجيش في معركة طريف: « وهكذا اتفق

لأبي الحسن المريني عند لقائه للفنش الطاغية ، فكانت عليه المفسدة الناكية ، وكيفية ذلك أنّ السلطان أبا الحسن لما أخذ تلمسان ، واستوى على هذه الأوطان ، وملك المغربين الأوسط والأقصى ، وبلغ منهما الغاية واستقصى ، أخذ في الجواز الى الأندلس غازياً ، يريد أن يكون للإسلام حامياً . . . »[٩١]. فهو على وعي بالأعمال التي قام بها أبو الحسن ، ولا يستطيع ان يغيّر الحقيقة ، ولكنه يأخذ على أبي الحسن في معركته ضد الطاغية انتقاله اليه بسرعة في الهجوم . وحين رأى المقاتلون حركة القلب ظنوا أنه انهزم ، فانكسرت الميمنة والميسرة ، وكان ذلك سبباً في هزيمته .

وكتاب « واسطة السلوك » وصية جامعة لولي العهد عبدالرحمن أبي تاشفين ، فيها نظرات حصيفة مبنية على التجربة والدراسة ، ولكنّ الأيام لم تمهل أبا حمو ، حتى سخرت منه سخرية مريرة . فقد كان ابنه الذي كتب له تلك الوصايا من أكبر الثائرين عليه[٩٢] ؛ فأعاد بذلك صورة الخلاف المبين الذي قضى على آمال أبي الحسن المريني جميعها ، عندما تنكّر له ابنه أبو عنان . ولكن المرء لا ينقضي عجبه من شخصية أبي حمو التي لا تعرف اليأس والاستسلام في أيّ مرحلة من المراحل ، وتلك ميزة تهبه قوة الايمان بما كان يراه حقًّا ، الا أنّها لا تمنحه قوة البصيرة في واقع المغرب يومئذ ، ذلك الواقع الذي أدركه ابن خلدون ، وحاول أن يعلّله ، فاذا هو يعلّل تطور التاريخ ،ثم يئس منه جملة ، فهاجر الى مصر .

في ظلّ الإخفاق المريني اذن امتدّ الفكر المغربي في فترة متقاربة السنوات من النصف الثاني في القرن الثامن ، الى أصول السياسة ومواضعاتها . وكان المفكرون المغاربة يُحِسُّون بالحاجة الى الأصول السياسية والنظم الصحيحة مثلما يحسّون بالرغبة في تفسير واقع حياة الحكم وتقلب الدول ، وفي تحديد المبادىء الصالحة : كانوا كعالم التشريح حيناً آخر ، يتلمس « التشخيص » الصحيح ليصف الدواء ؛ وكانوا كعالم التشريح حيناً آخر ، يستكشفون أسرار الجسم بعد وفاة المريض . فكتب لسان الدين بن الخطيب « مقامة » في السياسة ، وكتب ابن رضوان « الشهب اللامعة » ، وكتب السلطان موسى بن يوسف أبو حمو بن زيان صاحب تلمسان كتابه « واسطة السلوك في سياسة الملوك » ، وعكف ابن خلدون على كتابة « المقدمة » ؛ فكان تصريف ابن الخطيب للسياسة العملية أبرع من فكرته في مقامته ، وكان اطلاع ابن رضوان غطاء كثيفاً حجب حقيقة رأيه ، وكان النجاح المؤقّت الذي مارسه ابن زيان محور ثقته ، وكانت تجربة ابن خلدون أعمق من اطّلاعه .

وقد كان مفزع هؤلاء جميعاً الى كنز سابق في التعاليم السياسية هو كتاب « سراج الملوك » ، فعليه عوَّل ابن الخطيب حين نسَّق في أسلوبه الأدبي المسجوع بعض الملامح السياسية ، فمن ذلك قوله في الوزير :

« والوزير الصالح أفضل عُددك ، وأوصل مَددك ، فهو الذي يصونك عن الابتذال ، ومباشرة الأنذال ، ويثب لك على الفرصة ، وينوب في تجرّع الغصّة ، واستجلاء القصة ، ويستحضر ما نسيته من أمورك ، ويُغَلِّب فيه الرأي بموافقة مأمورك ، ولا يسعه ما تمكنك المسامحة فيه حتى يستوفيه .

واحذر مصادمة تيّاره والتجوّز في اختياره، وقدّم استخارة الله تعالى في إيثاره، وأرسل عيون الملاحظة على آثاره، وليكن معروفاً بالاخلاص لدولتك، معقود الرضا والغضب برضاك وصولتك، زاهداً عمّا في يديك، مؤثراً لكل ما يزلف لديك، بعيد الهمة، راعياً للأذمّة، كامل الآلة، محيطاً بالإيالة، رحيب الصدر، رفيع القدر، معروف البيت، نبيه الحيّ والميت، مؤثراً للعدل والاصلاح، دربًّا بحمل السلاح، ذا خبرة بدخل المملكة وخرجها، وظهرها وسرجها، صحيح العقد، متحرّزاً من النقد، جادًّا عند لهوك، متيقّظاً في حال سهوك، يلين عند غضبك، ويصل الاسهاب بمقتضبك، قلقاً من شكره دونك وحمده، ناسباً لك الاصابة بعمده. وان أعيا عليك وجود أكثر هذه الخلال، وسبق الى نقضها شيء من الاختلال، فأطلب منه سكون النفس وهدونها، وأن لا يرى منك رتبة الا رأى قدره دونها، وتقوى الله تعالى تفضل شرف الانتساب، وهي للفضائل فذلكة الحساب. وساو في حفظ غيبه بين قربه ونأيه، واجعل حظّه من نعمتك موازياً لحظّك من حسن رأيه. واجتنب منهم من يرى في نفسه الى الملك سبيلاً، أو يقود من عيصه للاستظهار عليك قبيلاً، أو من كاثر مالك ماله، أو من تقدّم لعدوك استعماله، أو من سمت لسواك آماله، أو من يعظم عليه إعراض وجهك، ويهمّه نادر نجهك، أو من يداخل غير احبابك، أو من ينافس أحداً ببابك »[٩٣].

واذا راجعت الباب الرابع والعشرين من « سراج الملوك » والعاشر من « الشهب اللامعة » وجدت ابن الخطيب قد نظم في هذه الفقرة جميع ما ورد من تحديدات وشروط لا بدّ من توفّرها في الوزير.

ومن هذا المصدر نفسه اغترف صاحب « واسطة السلوك »، فقد اعتمد كتاب « السراج »، ونسج مادة وصاياه لابنه من خيوطه؛ مرة يذكر المصدر، ومرة يسرد كلام الطرطوشي بنصّه دون أن يشير اليه. فمن ذلك قوله في الوزير:

« فيجب عليك أن تختار وزيراً كبيراً مهذّباً خطيراً بالأمور، بصيراً يجمع من محمود الخلال ثمانية من الخصال، وهي: أن يكون من خيار قومه وعترته، وكبير عشيرته وبيته؛ وأن يكون وافر العقل، عارياً عن الجهل، حاضر الذهن، سريع الفهم، راجح الرأي؛ محمود السعي؛ محباً ناصحاً، ودوداً صالحاً؛ شجاعاً في المهمّات وعند نزول الملمّات؛ حسن الصورة؛ فصيح اللسان، بديع العبارة بليغ البيان؛ كثير المال، غير ذي حاجة ولا اقلال... ومثل السلطان كمثل الطبيب والرعية كالعليل، والوزير كالسفير بين الطبيب والعليل، فان كذب السفير بطل التدبير... ومثل الوزير السوء الذي يمنع خير الملك الناسَ، ولا يمكّنهم من الدنو منه، كالماء الصافي يكون فيه التمساح... الخ »[٩٤].

والقسم الأول في هذا النص منسوج على غرار ما فعل ابن الخطيب من النصائح المبثوثة في « سراج

الملوك » وغيره ، أما التمثيلان التاليان فانهما من « سراج الملوك » نصًّا دون ذكر للمصدر . وما هذا إلا مثال واحد ، ومن شاء تتبع الكتابين بالمقارنة وجد مدى اعتماد ابن زيان على كتاب الطرطوشي .

فأما موقف ابن خلدون من الطرطوشي وكتابه فانّه مختلف عن مواقف الثلاثة من معاصريه . ولتبيان هذا الموقف علينا أن نعود لتصوّر العلاقة بين مقدمة ابن خلدون والشهب اللامعة :

ألمحت من قبل الى أن ابن خلدون كان قريباً من ابن رضوان يوم جمع هذا الثاني كتاب « الشهب اللامعة » ، وأنا أُقدِّر أنّ ابن خلدون اطّلع على هذا الكتاب ، فنبهّه الى حدود الموضوع الخطير الذي عالجه مؤلفه ، ودفعه الى التفكير في أن يدلي بدلوه فيه ، وأضيف : انّ الكتاب لم يعجب ابن خلدون ، فانه كان يريد شيئاً غير ذلك ، وقد رأى سيطرة كتاب الطرطوشي على كل من حاول الكتابة في موضوع السياسة ، فدرسه متعمّقاً ، وخرج بنتيجة سالبة كالتي خرج بها حين قرأ كتاب ابن رضوان ؛ فهو يشير الى مصادر مشتركة بينه وبين ابن رضوان : كحِكَم الفرس والكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة ، بل انه ينقل من هذا الكتاب الشكل الدوري : « العالم بستان سياجه الدولة ، الدولة سلطان تحيا به السُنَّة ، السُّنَّة سياسة يسوسها الملك ، الملك نظام يعضده الجند ، الجند أعوان يكفلهم المال ، المال رزق تجمعه الرعية ، الرعية عبيد يكنفهم العدل ، العدل مألوف وبه قوام العالم ، العالم بستان . . . »[٩٥] . وهذا النص نقله ابن رضوان أيضاً[٩٦] . كذلك أشار الى كلام ابن المقفع الذي اعتمد ابن رضوان بعضه في كتابه ، حتى اذا بلغ الى « سراج الملوك » قال فيه :

> « وكذلك حَوَّم ابو بكر الطرطوشي في كتاب **سراج الملوك** ، وبوّبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ، لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا اوضح الأدلة ، انما يبوّب الباب للمسألة ، ثم يستكثر من الاحاديث والآثار ، وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بزرجمهر والموبذان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليقة ، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ، ولا يرفع بالبراهين الطبيعة حجاباً ، انما هو نقل وتركيب شبيه بالمواعظ ، وكأنه حوَّم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقّق قصده ولا استوفى مسائله »[٩٧] .

ولست أذهب الى أن ابن خلدون عرف هذه المصادر وغيرها من كتاب ابن رضوان ، ولكنّ الذي أعنيه أنّ اطلاعه على كتاب ابن رضوان ـ وهو أمر غير مستبعد ـ قد حفزه الى تحدي من تمرسوا بهذا الموضوع جميعهم . فلما نضجت لديه التجربة وجد نفسه يكتب شيئاً مختلفاً عن كل من تناول ذلك الموضوع . وكان احساسه بجدة ما يقدم عليه واضحاً في قوله : « وكأنّه علم مستنبط النشأة ، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة »[٩٨] وقوله : « ونحن ألهمنا الله الى ذلك إلهاماً وأعثرنا على علم جعلنا سِنَّ بَكْرِهِ وجُهَيْنَةَ خَبَرِه »[٩٩] .

ولذا ذهب ابن خلدون يناقش الطرطوشي في مواضع من مقدمته ، فقال في حديثه عن العصبية واستغناء الدولة عنها : « وقد ظن الطرطوشي انّ حامية الدول ، بإطلاق ، هم الجند ، أهل العطاء المفروض مع

الأهلّة... وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها، وانما مخصوص بالدول الأخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصفة لأهله، فالرجل انّما أدرك الدولة عند هرمها وخلق جدتها ورجوعها الى الاستظهار بالموالي والصنائع، ثم الى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة... الخ »[١٠٠]
وقال في موضع آخر: «وقد ذكر الطرطوشي أنّ من أسباب الغلب في الحروب ان تفضل عدة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر... وأعاد في ذلك وأبدى، وهو راجع الى الأسباب الظاهرة التي قدّمنا، وليس بصحيح »[١٠١].

فكتاب «سراج الملوك» والوضع السياسي المغربي ـ الأندلسي الذي شهده كل من لسان الدين وابن خلدون وأبي زيان وابن رضوان تفاعلاً معاً تفاعل الفكر النظري والواقع العملي، وأنتجا هذا الالتفات الى السياسة وحياة الدول وظروف المجتمع. وتفاوت هذا الالتفات بحسب الثقافة والاستعداد والحاجة الدافعة وشمول النظرة أو قصورها. وفي اعتقادي أنّ مقدمة ابن خلدون ـ وهي أبرز ذلك النتاج، بل أبرز نتاج في الفكر العربي الاجتماعي ـ لا تُدْرَسُ بمعزل عن ذلك الاخفاق السياسي الذي عاناه أبو الحسن المريني، وأدّى الى تفكّك أوصال السيادة في المغرب والأندلس، فهي حكم على مصير يشبه ان يكون قَدَراً حتميّاً، وهي في موضعها من الفكر السياسي المغربي عامة حينئذ لا تبدو محاولة غريبة، وان كانت جديدة في منحاها. وحين نضعها الى جانب الصور الأخرى المعاصرة من الفكر السياسي ـ ومن بينها محاولة ابن رضوان ـ نجدها تتميّز بالتحدي لذلك النهج الفكري كله.

واذا كان وضع المرينيين قد ألهم ابن خلدون توسيع الأفق في المقايسات والامعان في دراسة نماذج أخرى مشابهة لحالهم في تاريخ الدول، حتى ليجيء ذكر المرينيين ـ وهم لا يزالون في السلطان ـ قليلاً، فانّ هذا الوضع نفسه قد حدّ من انطلاق ابن رضوان؛ لأنه يكتب لهم، وسلطانهم الذي يظله يحجب عن عينيه رؤيةً أوسع حدوداً، بل انه ليتجنّب التمثيل بهم الا في أمور محدودة، وخير مثال لموقفه هذا ايراده قصة الخلاف بين الأمير شمس المعالي وابنه أبي منصور[١٠٢]، فانّ الخلاف بين أبي الحسن المريني وابنه أبي عنان كان مثلاً أوضح للاستشهاد، وخبره لدى ابن رضوان أوضح وأقرب، ومع ذلك نراه أغضى عنه، مراعاةً لحاله في خدمة الدولة، وجاء بمثل آخر.

وعذر ابن رضوان واضح في هذا، وضوح عذره في القصور عن المدى الذي بلغه صديقه في مقدمته، فهو لا ينشىء وانّما يجمع، وهو ليس مؤرّخاً يلمح العلل والنتائج، وهو مُكَلَّف بالكتابة في السياسة لا متهمٌّ اليها بقوة الدافع الذاتي؛ فكتابه في وضعه الحقيقي لا يعدو ان يكون «صورة انتقائية» تجمع بعض خير ما كتب في هذا الموضوع في المشرق والمغرب، ولست أوليه من التقدير فوق ما يستحقه حين أراه جزءاً من تلك الظاهرة الكبرى، أعني تلك الفورة في الفكر السياسي المغربي، في القرن الثامن الهجري فوجوده انما يتحقق بوجود غيره؛ لانّ وجوده في المقام الأول مستمَدٌّ من غيره، وقيمته الحقيقية انما تكمن في طبيعة الظاهرة التي

أراه يمثّلها ، اما قيمته الثانوية فتعتمد على طبيعة مصادره وتردّدها بين الضيق والشمول ، وعلى احساسه الذاتي بالاختيار وقدرته على الترتيب والتبويب .

الحواشي

(١) مستودع العلامة : ٥٤ .
(٢) مستودع العلامة : ٥٢ ؛ وذكر ابن الأحمر في موضع آخر (نثير الجمان : ٦٥) أنّ متولي الوزارة لأبي سعيد هو عم جده رضوان .
(٣) مستودع العلامة : ٥٢ .
(٤) في الإحاطة (المخطوطة) : ٢٤٤ ، أنّه كان يكنى أبا محمد ؛ وانظر جذوة الاقتباس : ٢٤٦ .
(٥) يقول ابن الأحمر في نثير الجمان (٦٥ و) ان أصل سلفه من قرطبة ، ولكنهم استوطنوا مالقة .
(٦) انظر تاريخ ابن خلدون ٧ : ١٩٧ ، ٢٠٥ - ٢٠٦ .
(٧) اللمحة البدرية : ٦٢ .
(٨) فهرسة السراج : ١٣٩ (=١٤٨) .
(٩) ترجمة الجدلي في الاحاطة ١ : ٦٥ .
(١٠) انظر ترجمة ابن منظور في الاحاطة ٢ : ١٢١ ؛ ونيل الابتهاج : ١٢٢ ؛ والمرقبة العليا : ١٥٤ .
(١١) انظر ترجمة أبي عبدالله الطنجالي في الاحاطة (المخطوطة) : ٨٧ .
(١٢) الاحاطة (المخطوطة) : ٢٤٨ .
(١٣) ترجمته في النفح ٧ : ٢٧٥ ، ٢٩٥ ؛ وبغية الوعاة : ٨٠ ؛ والاحاطة (المخطوطة) .
(١٤) ترجمته في الكتيبة الكامنة : ٤٦ ؛ وأزهار الرياض ٣ : ١٨٤ ، ٢٩٥ ؛ ونيل الابتهاج : ٢٣٥ .
(١٥) الشهب اللامعة : ١٤٠ .
(١٦) الاحاطة (المخطوطة) : ٢٥٠ .
(١٧) راجع خبر هذه المعركة في اللمحة البدرية ٩٢ - ٩٣ ؛ وتاريخ ابن خلدون ٧ : ٢٦٢ .
(١٨) تاريخ ابن خلدون : ٧ : ١٦٢ .
(١٩) التعريف بابن خلدون : ٤١ ، غير أن لسان الدين يقول (الاحاطة المخطوطة : ٢٤٤) انه أنشد السلطان عند حلوله ببلده ، وهذا معناه أنّ ابن رضوان تعرّف الى السلطان ابي الحسن وهو في الاندلس ، أي قبل هجرته الى المغرب .
(٢٠) الاحاطة (المخطوطة) : ٢٤٥ ، وجذوة الاقتباس : ٢٤٧ .
(٢١) الاحاطة ١ : ٢١٧ ؛ والمرقبة العليا : ١٢٣ ؛ ونفح الطيب ٣٠٦/٧ ، وجذوة الاقتباس ، ٨٤ .
(٢٢) التعريف بابن خلدون : ٤١ ؛ وانظر أيضاً نثير الجمان : ٦٥ ظ .
(٢٣) انظر ترجمته في التعريف : ٣٨ ؛ ونفح الطيب ٧ : ٣٨٤/١٦٣ ؛ وتاريخ ابن خلدون ٧ : ٢٤٧ ؛ وجذوة الاقتباس : ٢٧٩ .
(٢٤) التعريف : ٢٢ .
(٢٥) التعريف : ٢٠ .
(٢٦) تاريخ ابن خلدون ٧ : ٢٤٨ .
(٢٧) حين ذكره في « الشهب » وصفه بقوله : « شيخنا الرئيس العالم » (أنظر ص : ١٤١) .
(٢٨) الفهرسة : ١٤٢ (١٥٠) .

(٢٩) ترجمته في التعريف: ٣٣؛ ونيل الابتهاج: ٢٤٤؛ والدرر الكامنة ٣: ٢٨٨؛ وجذوة الاقتباس، ١٤٤، ١٩١؛ والاعلام بمن حل مراكش ٣: ٢٧٣.

(٣٠) انظر الفهرسة (١٥١ - ١٥٢) والإحاطة (المخطوطة): ٢٤٥.

(٣١) الشهب اللامعة: ١٤٠.

(٣٢) ترجم ابن خلدون لهؤلاء العلماء في التعريف: ١٩ - ٥٥؛ لأنه أخذ عنهم، وهذا يجعلنا نقدر أنه لم يذكر علماء آخرين لم يأخذ عنهم شيئاً من العلم. وانظر ترجمة أحمد بن شعيب في الاعلام ٢: ٥.

(٣٣) التعريف: ٢٢؛ ونثير الجمان ٦٥ ظ.

(٣٤) التعريف ٢١ - ٢٥.

(٣٥) ترجمته في الديباج المذهب: ٣٣٦؛ ونيل الابتهاج: ٢٤٠؛ والمرقبة العليا: ١٦١.

(٣٦) تاريخ ابن خلدون ٧: ٢٧٦.

(٣٧) التعريف: ٤١.

(٣٨) لما عزم السلطان أبو الحسن على السفر في البحر اختفى الآبلي دون غيره من الفقهاء، لأنه كان قد رأى في المنام كأنّ قائلاً يقول له: « الفُلك الفُلك » قال: فأخبرت بهذه الرؤيا صاحبنا ابن رضوان، فأخبر بها السلطان أبا الحسن، فقال لعله يريد السفر في البحر (انظر الاعلام بمن حل مراكش ٣: ٢٧٨).

(٣٩) التعريف: ٤٢؛ والاحاطة (المخطوطة): ٢٤٤؛ وجذوة الاقتباس: ٢٤٦.

(٤٠) هذا ثبت بسلاطين بني مرين في الفترة التي عاشها ابن رضوان في ظلهم:
أبو عنان فارس بن أبي الحسن المتوكل على الله ٧٤٩ - ٧٥٩
أبو زيان محمد بن أبي عنان ٧٥٩
أبو يحيى أبو بكر السعيد بن أبي عنان (٧٥٩ - ٧٦٠).
أبو سالم ابراهيم بن أبي الحسن المستعين بالله (٧٦٠ - ٧٦٢)
أبو عمر تاشفين بن أبي الحسن ٧٦٢ - ٧٦٣
أبو زيان محمد المتوكّل على الله (٧٦٣ - ٧٦٧)
أبو فارس عبدالعزيز بن أبي الحسن (٧٦٧ - ٧٧٤)
أبو زيان محمد السعيد (٧٧٤ - ٧٧٦)
أبو العباس احمد بن سالم المستنصر بالله (٧٧٥ - ٧٨٦)

(٤١) التعريف: ٤٣؛ وانظر جذوة الاقتباس: ٢٤٦؛ ونثير الجمان، ٦٥ ظ.

(٤٢) مستودع العلامة ٢٠ - ٢١.

(٤٣) الإحاطة (المخطوطة): ٢٤٥.

(٤٤) التعريف: ٤٣.

(٤٥) التعريف: ٤٣.

(٤٦) التعريف ٤٣ - ٤٤؛ وقد أصبحت العلامة بعد ابن رضوان لمحمد بن حسن البجّاني، ثم ليحيى بن أبي دلامة (انظر مستودع العلامة: ٧٤، ٧٥).

(٤٧) التعريف: ٤٤.

(٤٨) ذكر صاحب جذوة الاقتباس انه توفي في «آنفا» (المعروفة اليوم بالدار البيضاء) وانظر: مجلة تطوان، (العدد الخامس ١٩٦٠): ٩٦.

(٤٩) جذوة الاقتباس: ٢٤٦.

(٥٠) فهرسة السراج، ١٣٩ (١٤٨)؛ نيل الابتهاج: ١٢٣؛ والاحاطة (المخطوطة) ٢٤٥.

(٥١) النفح ٨: ٢١٤.

(٥٢) المصدر السابق نفسه.

(٥٣) فهرسة السراج، ١٣٩ (١٤٨)؛ ونيل الابتهاج: ١٢٣.

(٥٤) مستودع العلامة : ٥٢ .
(٥٥) الإحاطة (المخطوطة) : ٢٤٥ .
(٥٦) فهرسة السراج : ١٣٩ ؛ ونيل الابتهاج : ١٢٣ .
(٥٧) المصدران السابقان .
(٥٨) النفح ٨ : ٢١٤ .
(٥٩) الكتيبة الكامنة : ٢٥٤ .
(٦٠) المصدر السابق : ٢٥٥ .
(٦١) المصدر نفسه .
(٦٢) نثير الجمان : ٦٥ ظ .
(٦٣) نيل الابتهاج : ١٢٤ .
(٦٤) فهرس الفهارس ١ : ٣٣١ .
(٦٥) من هذا الكتاب مخطوطات عديدة : منها رقم (D 729) بالخزانة العامة في الرباط ، في ١٠٠ ورقة ، ونسخة اخرى رقم (D 1083) ، وهي قطعة من الكتاب في ١٨ ورقة ؛ والنسخة (ق 92) ، وتقع في ٢٠١ ورقة و(ج 68) ، و(ج 908) ؛ وكلها بالخزانة العامة بالرباط (انظر : مجلة تطوان ، السنة الخامسة ، ١٩٦٠ ، ص٩٦) . ومخطوطة برلين (١٨٣٦) ؛ وكيمبردج (٨٢١) . والزيتونة (١٨٨٤) ؛ وليدن (١٩٤٣) ؛ والبودليانية (٢٩٦) (انظر بروكلمان : الاصل ٢ : ٤٦٣ ، والملحق ١ : ٨٣٧) . اما النسخة التي اعتمدتها في هذا البحث ، فهي نسخة خاصة في خزانة الصديق الأستاذ خير الدين الزركلي ، وتقع في ٢٥١ صفحة ، في كل صفحة ١٩ سطراً ، وهي نسخة قيّمة صحيحة دقيقة مكتوبة بخط أندلسي واضح ، قد كتبت عام ٨١١ ، أي بعد حوالي ٢٩ سنة من وفاة المؤلف .
(٦٦) روضة النسرين : ٣٠ .
(٦٧) هذا يخالف ما ذهب اليه صديقنا الاستاذ ابراهيم الكتاني في قوله « كاتب الانشاء بديوان السلطان أبي الحسن المريني ووالي خطة العلامة لولده السلطان أبي عنان ، وله ألف بأمر منه كتابه «الشهب اللامعة » (انظر مجلة تطوان : ٩٦) .
(٦٨) الشهب اللامعة : ٢ .
(٦٩) انتهى ابن خلدون من كتابة مقدمته في منتصف سنة ٧٧٩ وقضى في كتابة الصورة الاولى خمسة أشهر ، ولكنها كانت ثمرة لدراساته وتجاربه الطويلة في المغرب والاندلس .
(٧٠) الشهب اللامعة : ٢ .
(٧١) الشهب : ١٠١ - ١٠٣ ، وترقيم الشروط من وضعي لا من الأصل .
(٧٢) الاحكام السلطانية : ٢٦ .
(٧٣) لاحظ طبيعة هذه المناقشة التي تتصل بالأرقام ، وقارن بها نقد ابن خلدون للفكرة نفسها في مقدمته .
(٧٤) هما الفصلان : الحادي عشر والحادي والعشرون في الشهب اللامعة .
(٧٥) انظر الباب : ٥٢ ، ٥٣ في السراج .
(٧٦) المقدمة : ٥٠٥ .
(٧٧) انظر الرحلة : ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٦٣٢ .
(٧٨) انظر المقدمة : ص٥٠٥ - ٥٠٦ .
(٧٩) الشهب : ٨٨ .
(٨٠) الشهب : ١٤٠ - ١٤١ .
(٨١) انظر المرقبة العليا : ١٦١ - ١٦٢ .
(٨٢) اللمحة البدرية : ٦٧ .
(٨٣) اللمحة البدرية : ٨٢ .
(٨٤) نفح الطيب ٩ : ١١٦ - ١١٧ .
(٨٥) العبر ٧ : ٢٥٦ .

(٨٦) المصدر نفسه: ٢٦٤ .
(٨٧) المصدر نفسه: ٢٦٦ .
(٨٨) التعريف: ٥٦ .
(٨٩) واسطة السلوك: ١٣ - ١٤ ..
(٩٠) لم يكن يحيى بن خلدون بهذا بدعاً في المؤرخين، فان الحياة اليومية قضت على عبدالرحمن بن خلدون نفسه بالتقلب في خدمة رئيس إثر آخر، وجعلت ابن الخطيب يفزع الى أبي حمو نفسه برسائله وقصائده لكي ينال عطفاً ورعاية من لدنه، بل أن يكتب كتاباً كبيراً ليسوّغ بيعة صبي صغير دون الاحتلام. كان «الأيديولوجي» حينئذ أصغر بكثير من أن يسمو على الواقع المعيشي، ومن ثم برزت شخصية صاحب «السراج» بين هؤلاء المفكرين؛ لأنه كتب وهو مستغن عن طلب المجد السياسي.
(٩١) واسطة السلوك: ١٣٢ - ١٣٣ ..
(٩٢) تاريخ ابن خلدون ٧: ١٤٣ - ١٤٧، ولم تكن الأيام أقلّ سخرية بمؤرخه يحيى بن خلدون، فقد قتله ولي العهد نفسه كذلك.
(٩٣) النفح ٩: ١٣٧ - ١٣٨ .
(٩٤) واسطة السلوك ٣٢، ١٠٤ .
(٩٥) المقدمة: ٢٦٨ .
(٩٦) الشهب اللامعة: ٣٥ .
(٩٧) المقدمة: ٢٦٨ - ٢٦٩ .
(٩٨) المقدمة: ٢٦٦ .
(٩٩) المصدر السابق: ٢٦٩ .
(١٠٠) المصدر نفسه: ٤٦٤ .
(١٠١) المصدر نفسه: ٦٦٦ .
(١٠٢) الشهب: ٤٤ .

مصادر البحث

الإحاطة في أخبار غرناطة، للسان الدين ابن الخطيب، المخطوطة رقم ك ٢٧٠٤، بالخزانة العامة بالرباط).

الأحكام السلطانية والولايات الدينية، لأبي الحسن الماوردي، (ط. القاهرة، ١٩٦٠).

أزهار الرياض في أخبار عياض، للمقري التلمساني، تحقيق الاستاذ مصطفى السقا ورفيقيه (ط. القاهرة، ١٩٣٩ - ١٩٤٠).

الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الإعلام، لعباس بن ابراهيم المراكشي، (الطبعة الاولى بمدينة فاس، سنة ١٩٣٦).

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين السيوطي، (ط. القاهرة، ١٣٢٦ هـ).

تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر...)، جـ٧، (ط. بولاق).

التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، تحقيق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي، (ط. القاهرة، ١٩٥١).

جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الاعلام مدينة فاس، لابن القاضي، (ط. فاس، ١٣٠٩).

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، (ط. حيدر آباد الدكن، ١٣٤٨).

الديباج المذهب، لابن فرحون، (ط. القاهرة، ١٣٥١).

رحلة ابن بطوطة، أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي، (ط. صادر، بيروت).
روضة النسرين في دولة بني مرين، لأبي الوليد ابن الأحمر، (ط. الرباط، ١٩٦٢).
سراج الملوك، لأبي بكر الطرطوشي، (ط. القاهرة، ١٢٨٩).
الشهب اللامعة في السياسة النافعة، (مخطوطة بمكتبة الأستاذ خير الدين الزركلي).
فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات المسلسلات، للشيخ عبدالكبير الكتاني، (ط. فاس، ١٣٤٧).
فهرسة السراج، (المخطوطة رقم 1242 ك، ورقم 2463 د، بالخزانة العامة بالرباط).
الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، للسان الدين ابن الخطيب، تحقيق الدكتور احسان عباس، (ط. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣).
اللمحة البدرية في الدولة النصرية، للسان الدين ابن الخطيب، (ط. السلفية بالقاهرة، ١٣٤٧).
مجلة تطوان، (١٩٦٠).
المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تاريخ قضاة الاندلس)، لأبي الحسن النباهي المالقي، تحقيق الاستاذ ل. بروفنسال، (ط. القاهرة، ١٩٤٨).
مستودع العلامة ومستبدع العلامة، لأبي الوليد ابن الأحمر، تحقيق التونسي والتطواني، (ط. تطوان، ١٩٦٤).
مقدمة ابن خلدون، تحقيق الدكتور علي عبدالواحد وافي، (ط. القاهرة، ١٩٥٧ - ١٩٦٢).
نثير الجمان في شعر من نظمني وايّاه الزمان، لأبي الوليد ابن الأحمر، (مصوّرة دار الكتب المصرية).
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني، تحقيق الشيخ محيي الدين عبدالحميد، (ط. القاهرة، ١٩٤٩).
نيل الابتهاج بتطريز الديباج، لأحمد بابا التنبكتي، (على هامش الديباج المذهب، ط. القاهرة، ١٣٥١).
واسطة السلوك لأبي حمو ابن زيان العبد الوادي، (ط. تونس، ١٢٧٩).